الرجل والمرأة

٣

نتائج الاختبارات العقلية [١]

بقلم حامد عبد القادر

استاذ علم النفس بكلية أصول الدين

(١٢)

قد بينا فى مقال سابق وسيلتين من الوسائل التى اتخذها علماء النفس لمعرفة ما بين البنين والبنات من فروق فى المقدرة العقلية ، والآن أشرح للقراء وسيلة أخرى قلت إنها ربما تعد أدق من الوسيلتين السابقتين، وأعنى بهذه الوسيلة — الثالثة : الاختبارات العقلية .

لست أريد أن أطيل فى الكلام على الاختبارات العقلية ، ولا أن أبين للقراء تاريخها الطويل المسهب . وإنما يكفى أن أذكر هنا أن العلماء منذ أوائل القرن التاسع عشر أخذوا يبتكرون شتى الطرق والوسائل لاختبار العقلية الانسانية وسبر غورها ، ومعرفة الأسباب التى تدعو إلى ما يعتريها من تطور أو تقلب . ولقد كان علماء النفس متأثرين فى أبحاثهم هذه بتلك الثورة الاجتماعية العنيفة ، وذلك الانقلاب العلمى الخطير الذى اهتزت له أركان العالم وتأثرت به جميع العلوم طبيعية كانت أو اجتماعية

(١) راجع المقال الأول فى « صحيفة دار العلوم » العدد الأول ص (٨١ – ٨٦) والمقال الثانى فى العدد الثانى (ص ٨٩ — ٩٨) .

أو إنسانية . فلم يكن حظ علم النفس من ذلك الانقلاب وتلك الثورة بأقل من حظ غيره .

ولا ريب أن أبرز مظهر من مظاهر ذلك الانقلاب الذى حدث فى المباحث النفسية وضع طريقة متبكرة لتعرف العمليات العقلية المختلفة ، وتبين علاقة بعضها ببعض ، ومعرفة ما يحيط بها من ظروف وما يعتورها من تغير أو ضعف أو قوة ؛ تلك الطريقة هى التجربة المبنية على أساس علمى ثابت ؛ فبعد أن كان العالم النفسى يتبع فى مباحثه طريقة فلسفية محضة مقصورة على مشاهداته وملاحظاته الفردية الخاصة ، إذ كان يخلو ونفسه فى حجرته ويجلس على كرسيه ويحاول أن يراقب نفسه بنفسه ويتأمل ثم يتأمل حركات عقله وسكناته ثم يستنبط من تلك المراقبة قواعد نفسية ، ويصل من ذلك التأمل إلى قوانين عقلية — أقول بعد أن كان العالم النفسى يكتفي بتلك الطريقة الفردية الفلسفية أصبح — بعد التأثر بتيار العلم الحديث ، وبعد معرفه الطرق التى يتبعها العلماء الآخرون فى مباحثهم — مضطراً إلى أن يسلك طريق العالم الطبيعى فيترك مخدعه ، ويهجر كرسيه ويذهب إلى المعمل السيكولوجى ليقوم به بالتجارب والملاحظات النفسية بيد أن الباحث النفسى فى ذلك العصر — حتى بعد ابتكار طريقة التجربة — لم يكن موفقا تمام التوفيق فى أعماله ؛ إذ أنه لم يدرك أن العقول البشرية تتفاوت ، ولم يعرف بادىء بدء أن العقل الواحد يتطور وينتقل من مرحلة فى النمو إلى مرحلة أرقى منها . وكانت تجاربه فى أول الأمر مقصورة على الأفراد العاديين من بنى الإنسان فلم تتناول مباحثه عقلية غير العاديين التى هى دون المتوسط أو فوقه ؛ لأنها كانت تعد عقلية شاذة خارجة عن حدود المباحث النفسية ، وليست خاضعة للقوانين النفسية المعروفة . وكذلك لم يكن البحث فى عقلية الحيوان من المباحث النفسية ؛

لأن علماء ذلك العصر والعصور السابقة له لم يتجهوا بتفكيرهم الجدى نحو هذه الناحية ، لاعتقادهم أن البحث فى عقلية الحيوان لايجدى .

ولكن مالبثت هذه العقائد أن تغيرت ، وما زالت تتغير حتى اتسع نطاق المباحث العقلية ، وتشعبت فروعها ، وكثرت أبوابها ، فاضطر علماء النفس إلى تقسيم مادتهم إلى طوائف كل طائفة مرتبطة بموضوع خاص ، وعن هذا التقسيم نشأت فروع علم النفس المتعددة ؛ فمن علم النفس العام إلى علم النفس الاجتماعى ، إلى علم النفس الأخلاقى ، إلى علم النفس المقارن ، إلى علم النفس الطبى ، إلى علم النفس الصناعى وهلم جرا . ولم تبق المباحث النفسية مقصورة على عقلية العاديين من بنى الإنسان بل تعدتها إلى عقلية الشواذ وعقلية الحيوان . ولقد أصبح من المتبع الآن تخصيص بحث خاص لكل عصر من عصور حياة الفرد لاسيما الطفولة والمراهقة والبلوغ .

وباتساع نطاق المباحث النفسية وباختلاف الأغراض التى يرمى إليها الباحثون اختلفت طرق البحث وتعددت ، وكان من هذه الطرق طريقة الاختبارات العقلية التى نحن بصدد بحثها الآن .

(١٣)

والاختبارات العقلية كما هى الآن متعددة متشعبة النواحى مختلفة باختلاف الغرض ؛ فهناك مثلا :

(١) اختبارات لمعرفة قوة الحواس الدنيا والعليا ، وتبين علاقتها بالمقدرة العقلية العامة ، كالاختبارات التى وضعها العلامة « فرانسس جولتون » وقفى على آثاره فيها « جلبرت وسبيرمان » ، وكانت نتيجة هذه الاختبارات العلم بأن هناك علاقة وثيقة بين قوة الحواس وبين المقدرة العقلية العامة .

(٢) اختبارات لمعرفة ما إذا كانت تقوية وظيفة من الوظائف العقلية بالتدريب والمرانة تؤدى إلى تقوية بعض الوظائف الأخرى، كالاختبارات التى وضعها «ثورندیك» و«ودورث» و«وصلر» فى أواخر القرن التاسع عشر. وقد وصل بهم البحث إلى أن تقوية وظيفة ما من وظائف العقل بالتمرين لا تؤثر فى تقوية غيرها من الوظائف مهما اشتدت الرابطة بين هذه وتلك.

(٣) اختبارات يراد منها قياس الوظائف العقلية العليا كالموازنة والاستنباط وادراك الكلى والتفكير الراقى المتطفر، كالاختبارات التى وضعها «بينيه» و«بالارد»، ومن هذه الاختبارات جمل ناقصة يراد تكميلها مثل:

نسبة الأبيض إلى الأسود كنسبة الحسن إلى . . . . . ؛ ونسبة القدم إلى الجسم كنسبة العجلة إلى . . . . . ؛ ومنها أقيسة يراد معرفة نتائجها مثل:

علىّ أطول من حسن، ومحمد أطول من علىّ، فأيهم أطول الجميع؟

ومثل:

قال إسماعيل إذا تأخر القطار فلن أستطيع المحافظة على الميعاد، وإذا لم يتأخر القطار عن ميعاد وصوله فلن استطيع ركوبه، ونحن لا نعرف أتأخر القطار أم وصل فى موعده، فهل تعرف أحافظ إسماعيل على الميعاد أم لم يحافظ؟

ومنها جمل يراد معرفة ما فيها من الخطأ المعنوى مثل:

(ا) لى ثلاثة أخوة: ابراهيم ومحمود وأنا.

(ب) ذات يوم وجدت جثة بنت فقيرة فى غابة من الغابات، وكانت الجثة مقطعة ثمانى عشرة قطعة، ويشاع أنها هى التى قتلت نفسها.

(٤) اختبارات وضعت لقياس الشخصية الخلقية وعناصرها كالأمزجة والانفعالات وما إليها، كالاختبارات التى وضعتها الدكتورة «نورزويرثى»

والآنسة «داونى» ومن تبعهما من الأمريكيين، وكالاختبارات التى وضعها الدكتور «يونج» الطبيب السويسرى وأتباعه.

(٥) اختبارات وضعت لتبين مقدار الاستعداد لحرفة أو صناعة من الصناعات، وقد شاع استخدام هذه الاختبارات إبان الحرب العظمى الماضية فى أمريكا وانجلترا، لأن الضرورة قد دعت أولى الأمر فى ذلك الوقت الى اختيار الجنود الأقوياء القادرين على مقاومة أخطار الحرب وأهوالها؛ إذ لو أرسلوا إلى ساحات القتال جنودا غير صالحين لكانت الطامة الكبرى على المتحاربين، وقد فازت الولايات المتحدة بقصب السبق فى ابتكار اختبارات من هذا النوع لاختيار الجنود الأكفاء، وكان الفضل فى ذلك للعلامة «ثورنديك» العالم النفسى الأشهر.

وضعت الحرب أوزارها فلم يضعف تيار العمل، بل مازالت الأبحاث قائمة على ساق وقدم، وما زالت النتائج تلو النتائج تمحص وتفحص حتى ذاع أمر الاختبارات العقلية وشاع خبرها فملأ أوربة، وصار العالم المتمدين يؤمن بما لها من فوائد فى اختيار العمال للأعمال المختلفة. وإنك لتجد الآن معاهد مؤسسة لهذا الغرض فى فرنسا وبلجيكا وهولندا وسويسرا واسبانيا وألمانيا وغيرها.

ويدير كل من هذه المعاهد علماء لهم دراية واسعة بعلم النفس وخبرة تامة بعمل التجارب النفسية. ولم يعد أمر الاختبارات العقلية سرا من الأسرار، بل إن هناك صلة وثيقة بين هؤلاء العلماء وبين المعامل النفسية المنشأة فى البلاد الأخرى من جهة، وبينهم وبين المحال التجارية والمدرسين وغيرهم من المربين من جهة أخرى.

(١٤)

كان من نتائج ذيوع الاختبارات العقلية وتعددها وتعدد الأغراض التى وضعت من أجلها أن فكر بعض الباحثين فى استخدامها لمعرفة متوسط الذكاء بين البنين ومضاهاته بمتوسط الذكاء عند البنات . ومن قول هذا الميدان العلامة « ثيرمان » الأمريكى الذى اختبر ما يقرب من ألف طفل (٤٥٧ ولد و ٤٤٨ بنت) تتراوح أسنانهم بين الخامسة والثالثة عشرة ، معتمداً فى ذلك على الاختبارات التى وضعها « بينيه » و « سيمون » ثم عدلها « استانفورد » وقد وجد هذا العالم بعد أخذ المتوسطات أن البنات فقن أمثالهن من البنين بقليل ، فى كل سن من الأسنان السابقة ماعدا من فى سن العاشرة ، فان البنين فاقوا أمثالهم من البنات بقليل أيضاً .

ولما كانت الفروق التى بين الجنسين من هذه الناحية قليلة جدا لا تكاد تذكر قرر « ثيرمان » أننا إذا اعتمدنا على هذه الاختبارات العقلية وعلى النتائج التى وصلنا إليها أمكننا أن نقول : « إن متوسط الذكاء عند البنات والنساء يبلغ متوسط الذكاء عند البنين والرجال . ولقد قام العلامة الانجليزى « سيرى بيرت » بأبحاث مثل أبحاث « ثيرمان » ، والظاهر أن أبحاثه قد وصلت به إلى نتيجة تشبه النتيجة التى وصل إليها « ثيرمان » ؛ فانه بعد اختبار نحو ثلاثة آلاف طفل تتراوح أسنانهم بين الثالثة والرابعة عشرة على طريقة « بينيه » و « سيمون » وصل إلى النتائج المدونة فى الجدول الآتى :

السن الحقيقية للطفل	متوسط السن العقلية	
	بنون	بنات
٣	٣ر٢	٣ر٨
٤	٤ر٥	٤ر٧
٥	٥ر٣	٥ر٧
٦	٦ر٢	٦ر٨
٧	٧ر٣	٧ر٨
٨	٨ر٤	٨ر٧
٩	٩ر٢	٩ر٦
١٠	١٠ر٧	١٠ر٤
١١	١١ر٤	١١ر٥
١٢	١٢	١٢ر٤
١٣	١٢ر٩	١٣ر٣
١٤	١٣ر٥	١٤ر٢

ومن هذا الجدول ترى أن البنات يفقن البنين فى الأسنان العقلية ، ماعدا السنة العاشرة التى يفوق فيها البنون البنات ، وهذه هى النتيجة التى وصل إليها « ثيرمان » .

(١٥)

لعلك أيها القارئ الكريم تعجب لهذه النتائج التى وصل إليها العالمان المذكوران ، ولعل عجبك يشتد إذا علمت أن هذين العالمين من النزاهة والدقة بحيث يوثق بهما فى المباحث النفسية . ولكن هذا العجب لا يلبث أن يزول إذا علمت السر فى فوز البنات على البنين فى ميدان الاختبارات العقلية . ولبيان ذلك أقول :

أولا : إن هذا الحكم صادر على المجموع لا على الأفراد ؛ أى أن هذه النتيجة لا تقول لنا إن ذكاء البنت على العموم مساو لذكاء الولد أو أعلى منه ، ولكنها تقول إن متوسط الذكاء عند البنات مساو لمتوسط الذكاء عند البنين أو أعلى منه بقليل ؛ فالحكم إذاً على المتوسط . ومعنى ذلك أنه قد يوجد من بين البنين من ذكاؤهم دون المتوسط بكثير جدا ، ومن ذكاؤهم أعلى من هذا المتوسط بكثير جدا أيضاً ، وباضافة هذا إلى ذلك وقسمة الناتج على عدد الأفراد ينشأ المتوسط . أما الحالة عند البنات فليست كذلك .

ثانياً : إن هذه الاختبارات كثيرة متنوعة وليست كلها مقاييس لقوة الإدراك والذكاء بمعنى الكلمة ، بل إن منها اختبارات خاصة بالكلمات ومعانيها ، وأخرى خاصة بالأمور الذوقية وبضروب المجاملة والتلطف فى الحديث ، ولا شك أن البنات يفقن البنين فى مثل هذه الأشياء .

ثالثاً : إن النجاح فى مثل هذه الاختبارات يتوقف إلى حد بعيد جدا على سرعة فهمها وسرعة الإجابة عنها ، وهذه مسائل لغوية كثيرا ما تتغلب البنات فيها على إخوتهن البنين .

فالحكم على متوسط ذكاء البنات على العموم بأنه مساو لذكاء البنين أو أعلى منه بقليل بعد القيام بالاختبارات العقلية السابقة ، ليس معناه — كما قد يتوهم القارىء لأول وهلة — أنه ليس من بين البنين من هم أعلى ذكاء من أرقى البنات ذكاء .

والواقع أن «ثيرمان» و«بيرت» لاحظا فروقاً هامة بين إجابات البنين وإجابات البنات ، فوجدا مثلا أن إجابات البنين قد فاقت بكثير إجابات البنات فى التعريفات وبيان أوجه التشابه والتضاد بين بعض الأشياء

وبعض ، وكذلك فى الاختبارات التى تتطلب تدبرا وتفكيرا أو عمليات حسابية .

وقد وجدا بجانب ذلك أن إجابات البنات خير من إجابات البنين فى المسائل اللغوية وفى الأمور التى للذوق فيها مجال .

هذا إلى أن تجارب الدكتورة «مكفارلين» تؤيد القول بأن التمكن من اللغة والسرعة فى الفهم والإجابة مما يسهل الأمر على البنات ويساعدهن فى التغلب على البنين فى هذه الاختبارات . قامت هذه المربية بتجارب فى مدارس لندن لقياس مقدرة البنين والبنات على تكوين الأشياء وتركيبها ، ولمعرفة ما بين الجنسين من فروق فى هذه الناحية من نواحى النشاط العقلى والمادى ، وقد اقتنعت بعد القيام بتجارب مختلفة متعددة فى ظروف خاصة متحدة أن البنين يفوقون البنات بكثير فى هذه الناحية . ومن الغريب أن البنين سبقوا البنات فى التأليف بين أجزاء لعبة من اللعب التى يولع بها البنات ، تلك هى مهد صغير لدمية من الدُّمى . ولا شك أن التجارب التى من هذا القبيل عادية ، لا تمنح أحد الجنسين دون الآخر ميزة خاصة . ويؤيد النتيجة التى وصلت إليها السيدة «مكفارلين» النتائج التى وصلت إليها اللجنة الصناعية التى شكلت فى انجلترا لقياس التعب .

(١٦)

إن هذه النتائج التى وضعناها بين يدى القارىء إن دلت على شىء فإنما تدل على :

(١) أن متوسط المقدرة العقلية عند البنات يكاد يساوى متوسط هذه المقدرة عن البنين .

(٢) أن من بين البنين من ذكاؤهم فوق هذا المتوسط أو دونه بكثير ،

أما ذكاء البنات فإن لم يكن فى دائرة المتوسط فلا يقل عنه أو يزيد عليه إلا بقليل .

(٣) أن البنين يفوقون البنات فى تكوين الأشياء وتركيبها

(٤) أن البنات يفقن البنين فى الاختبارات الفنية والتى تتوقف سرعة الإجابة فيها على فهم الألفاظ والجمل .

(٥) أن البنين يفوقون فى الاختبارات التى تحتاج إلى تروّ ورياضة عقلية وعمليات حسابية .

أما النتيجة الأولى فليست بذات اهمية عظيمة ، لأن متوسط الذكاء ليس له وجود فى الخارج وإنماله اعتبار ذهنى ، أما الذكاء الفردى فله وجود خارجى ، والذكى يستخدم ذكاءه فى النهوض بنفسه ، وكثيراً ما يكون سببا فى سعادة غيره ، ولا يستطيع أن يهب غيره جزءا من ذكائه ، كما لا يستطيع الغبى أن يستمد من ذكاء غيره ولا أن يقتطع منه قطعة يضيفها إلى ذكائه ، والجماعات لا ترقى بمتوسط ذكاء أفرادها ، ولم يصل المجتمع الإنسانى بعد إلى حالة يقوم فيها جهاد الجماعات مقام جهاد الأفراد ، ويندمج فيها ضعف الضعيف فى قوة القوى ، وخلاصة القول أن الذكاء الفردى له آثار تذكر فى المجتمع وأن الذكاء الجمعى أو متوسط ذكاء المجتمع لا وجود له فى الخارج ولا فائدة له تذكر .

والنتيجة الثانية تبين لنا السبب فى أن معظم العباقرة والقادة والمبرزين ، فى كل ميدان من ميادين الحياة ، من الرجال ، وتبين لنا فى الوقت نفسه السبب فى أن معظم المجانين والمعتوهين وضعاف العقول من الرجال أيضا .

ومن النتيجة الثالثة نعرف السبب فى أن معظم المبدعين والمخترعين والمنشئين من الرجال أيضاً .

أما النتيجتان الرابعة والخامسة فتؤيدان ما ذكرناه فى المقال السابق

من نتائج المباحث التى قام بها العلماء متبعين الطريقتين السابقتين .

(١٧)

وبعد فنستطيع أن نقول على وجه العموم إننا مهما فكرنا ومهما اختبرنا وجدنا أن هناك فروقا جنسية بين البنين والبنات ، وأن هذه الفروق لايستهان بها ولا يمكن إنكارها ولا التغاضى عنها .

ولا يجولن بخاطر القارئ الكريم أننا نقصد من وراء هذه التفرقة استصغار شأن المرأة أوالحط من كرامتها ؛ إذ أن التفرقة لاتستدعى الحط من كرامة أحد الجنسين ، وصفات المرأة الخاصة لم تنشأ عن تأخرها فى سلم الرقى ، ولكنها نتائج طبيعية للاتجاه العام المستمر نحو التخصص وتوزيع الأعمال .

يقول « فوييه » : « إن المرأة لم تتأخر عن الرجل ، بل إنها سارت معه جنبا إلى جنب ، ولكن تقدمها كان دائما نحو الغاية التى ترغمها طبيعتها على السير نحوها » .

ويقول « جيمز ولتون » : « إن قياس قوة المرأة الفكرية بقوة الرجل قياس باطل . وإن استنباط أن الرجل أعلى منزلة من المرأة من عجزها عن التفكير الفلسفى استنباط كاذب ، نعم إن تقدير الرجل للقوانين والأحكام العامة شىء ، وإن تقدير المرأة للأمثلة والنماذج الحسية المادية شىء آخر ، ولكننا لانستطيع أن نقول إن هذا أقل منزلة من ذلك ؛ فكل منهما ضرورى فى الحياة ، والمرأة باتجاهها إلى ناحيتها الخاصة تكمل الرجل فى اتجاهه إلى ناحيته ، كما أنه باتجاهه الخاص يكمل المرأة فى اتجاهها فكل منهما مكمل للآخر » .

« فليست المسألة مسألة تفضيل للرجل على المرأة ، ولكنها مسألة بيان اختلاف كل عن الآخر فى الصفات الجسمية والعقلية ، ولذا نعد عبثا كل

محاولة عملية يقوم بها المجتمع وكل منهج تسير عليه الأمة يكون الغرض منه جعل المرأة مثل الرجل فى قواه العقلية ؛ لأنها تكون حينئذ محاولة ضالة ومنهجا مبنيا على أساس سيكولوجى واهٍ لا يلبث أن ينهار » .

(١٨)

ويهمنا كثيرا أن نلفت نظر القراء إلى أن هذا البحث يفضى بنا إلى نتيجة عملية لا نزاع فى صحتها هى : أنه ليس من الحزم فى شىء أن نرغم البنت على أن تسير مع الولد جنبا إلى جنب فى معاهد التعليم ، أو أن نجعل المناهج التى نسير عليها فى تعليم البنين مساوية أو مشابهة لتلك التى نسير عليها فى تعليم البنات ، فلكل ميول واستعدادات ، ولكل وظيفة فى الحياة تنتظره . فلنعد كلا لوظيفته خير إعداد ، متبعين فى ذلك ما تمليه علينا الطبيعة البشرية ، وما يرشدنا إليه القانون الإلهى الأعلى الذى يأبى إلا أن يكون الرجل رجلا والمرأة امرأة .

إننا إن خالفنا تلك الطبيعة البشرية ، وخرجنا على ذلك الناموس الإلهى فإننا نعرض أبناءنا وبناتنا لأخطار اجتماعية ربما لا يستطيعون مقاومتها ، ونقع فى أخطاء تعليمية قد لا نستطيع إصلاحها ، ونزيد فى مشكلة المتعلمين التى استعصى على المصلحين علاجها .

يقول العلامة « هورن » المربى الأمريكى الشهير :

« إننى مع عدم تعرضى لبحث هذه المشكلة التى قتلها الناس بحثا فى كل زمان ومكان ، ألا وهى مشكلة منزلة المرأة فى المجتمع ، لا أرى مانعا من الإدلاء برأيى فيها بكل بساطة فأقول : إن المرأة يجب أن تتربى تربية تكفل سعادتها وتضمن سعادة زوجها وأولادها فى آن واحد ، فيجب أن تعد نفسها للقيام بمهمة خاصة لا للقيام بمهام عامة ؛ فتعد نفسها للبيت والمدرسة

لا لمنبر الوعظ ولا لمنصة القضاء ، ومن الواجب أن تكون تربيتها على نسق تربية أخيها لكن فى النظام والطرق العامة، لا فى المناهج والطرق الخاصة ؛ لأنه من الواجب مراعاة طبيعة المرأة الخاصة ووظيفتها المقصورة عليها فى الحياة »

« ومن أهم مايجب عليها معرفته أمران، هما التدبير المنزلى ، وواجبات الأمومة ، وهذا ما أظنه جاريا على فطرة المرأة ، وهذه هى المبادئ التى سيكون لها الفوز والنصر المؤزر عاجلا أو آجلا ، وحينما يعلن انتصارها النهائى باحتلال النساء مراكزهن الجديرة بهن فى المجتمع وفى المدرسة وفى البيت تصبح المرأة الركن الركين والعماد الوحيد الذى يعتمد عليه فى تحسين أحوال النوع إلى أقصى حد ممكن » .

« وستعلم المرأة حينئذ أن هذه هى وظيفتها الحيوية فى المجتمع ، وأنها هى الوظيفة التى تتوقف عليها سعادتها الكاملة مهما تظاهرت بأنها ترى سعادتها فى غيرها من الوظائف ، ومهما ادعت أنها قانعة بحياتها حينما تقوم بأعمال هى إلى أعمال الرجل أقرب وبه أليق » .

عامر عبد القادر